المؤتمر العالمي السادس
لبديع الزمان سعيد النورسي

العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور
(البحوث العربية)

ISBN: 975-6438-14-2
Publication: Söz Basım
Year: 2002, İstanbul

بديع الزمان... والمناعة من آثار العولمة

د. محمد عبد النبي(*)

البحث في سير الرجال مورد قد لا تصفو دلاؤه، وتسجيل انطباع أو الخروج بمنهج قد لا يسر المحب،أ و قد يغيظ خصيما يسوءه أن ينسب إليه فضل، و يذكره الأخلاف بخير، أو أن ينصفه تاريخ بعد أن أغمط حقه أقران، و رجال ساءهم أن يشوش عليهم سوء مسلك أو شرور خيار.

إننا في وقت لا يرحم فيه من يتخلف، عن مواكبة حدث، أو متابعة قضية، أو تحصيل معرفة، فأين موقع من ينـــزوي في ركن، أو يختلي بنفسه، بعيدا عن ضوضاء عصـــر، تتلاحق فيه الأحداث سراعا، وأنى لمن هذه حاله، أن يدعي سبقا في فكر، أو ريـــادة في إصلاح، و هو على قيد الحياة،فإذا غيبه الموت خشي عليه أن يخمل ذكره، فضلا عـــن بقاء الأثر.

يقول شمعون بيريز : "... إن رخاء الأمة يأتي حصيلة تجميع المعرفة، فالمعرفـــة هـــي الثروة الحقيقية على أعتاب القرن الحادي والعشرين ."[1]

و يذهب أبعد من ذلك حين يقرر " أن موقع الصدارة و الهيمنة سيكون للمبـــادئ القائمة على العلوم والمعرفة التي يتم إحرازها في الجامعات و معاهد الأبحاث." [2]

لا يعني سوق هذا الكلام الآن الانبهار بقائله أو الاستدلال به دون تحفظ، غـــير أن الأيام تثبت أن من يسيطر على صناعة المعلومة و توظيفها أقدر على تســـنم الصـــفوف الأولى. ولو استحضر القارئ كلام النورسي واقتطعه من السياق العام لمنهج الرجـــل في التفكير لوقف على حجم المفارقة، و انتابه إحساس غامر بأن قائله يعيش التزاما يتذوق حلاوته، يشوش عليه خيار فرضه عليه أغيار، فتمتزج الحرية بالإكراه، و تختلط فلســـفة

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية – رئيس اللجنة العلمية لقسم أصول الدين – جامعة الجزائر – الجزائر.

العزلة مع أنين التشكي من الوحدة،و جهاد تصبر تبتغى محامده، مع نفثات جزع لا يكاد يبين، لترتسم لوحة لأسير تحبسه جدر، فيكسرها بسياحة عقل ووجدان تتخطى عيون من يترقب، و تقفز على أسوار لا تمسك إلا بالجسد، ولا سلطان لها على فكر يتأبى على القيد، و مشاعر لا ترضى بسوى الحب طريقا ومنهجا.

لعل من الأمور التي يتميز بها منهج النورسي، و قد يذهب في هذا التميز حد التفرد أن له في الدعوة–ربما على غرار الفقه – مذهبا قديما و آخر جديدا، و هو ما لم نلمسه عند أحد من الدعاة في العقود الماضية على الأقل،ومهما اتفقنا أو اختلفنا مع المذهبين أو الخيارين فإن هذا لا يمنعنا من الإحساس بالإعجاب والإكبار، برجل يراجع فكرا مشى عليه عقودا،و ربما أقنع به أتباعا، فيتراجع و لا يعدم الشجاعة في الجهر بذلك، لكن الأهم من ذلك كله أن نقف على النسق الفكري و الدعوَيّ الذي تلتئم به مفردات المنهج،حتى إذا أخضعت التجربة للنقد و التقييم انتفت عن العمل أمارات ارتجال يسئ، أو بوادر تحيز أو تحامل لم يسلم منهما كثير من الناس.

من السهل أن يسارع المرء إلى اتهام–من "يفاخر" بل "يتحدى"بعدم الاطلاع على جريدة طيلة ثماني سنوات[3] – بقلة الوعي أو قصور المنهج أو حتى الإخلال بالسنة ؟ وقد يكون رأيا له وجاهته، لكن الصحيح في منهج النظر أن يدرج التصرف ضمن الخيار الثاني المعلن و المبرر، تماما كالنهج القديم الذي كان يسمح له بقراءة ثمان جرائد في اليوم الواحد.[3]

وعندما يشرح سبب إعراضه عن السياسة فيقول بأنه خاض غمار السياسة، " ما يقارب العشر سنوات عله يخدم الدين و العلم عن طريقها فذهبت محاولته أدراج الرياح، إذ رأى أن تلك الطريق ذات مشاكل ومشكوك فيها...و أن أغلبها خداع و أكاذيب، وهناك احتمال أن يكون الشخص آلة بيد الأجنبي دون أن يشعر.." [4] عندما يفعل ذلك لا يهمه أن يوافَق أو يخالَف، و قد نناقشه في مدى صحة بعض الحجج التي تسانده، أو المدة التي جُعلت مقياساً للفشل إذا قيست بمدد الأنبياء و المصلحين، و قد نجادله حتى في الإيحاء بالنجاح في الخيار الثاني، إذ القياس قد لا يثبت مع فوار ق المقارنة، والنجاح حين يناط السعي فيه بفرد يختلف التقدير فيه عن الفشل الذي يلحق شخصاً وفي العنق تبعات شعب و أمة. والدعوات الكبرى لا يلاحقها التردد أو التعثر أو حتى التبديل بمجرد احتمال التوافق مع الآخر أو التسخير من قبل العدو.

إن من يعيش على ضفاف أحداث العولمة – و ليس الواقع فيها – تصدمه تصريحات في هذا الموضع أو ذاك من الرسائل، و يكاد يجزم- لأول وهلة – بأن النورسي لا يؤمن بآلياتها الأولية فضلاً عن نتائجها أو آثارها، فالرجل لم يكن يراسل أحداً " وما كنت أكتب رسالة إلا نادراً إلى صديق و حول مسألة إيمانية، بل لم أكتب حتى لشقيقي إلا رسالة واحدة خلال أربع سنوات، فكنت أمنع نفسي عن مخالطة الناس والاتصال بهم، فضلاً عن أن أهل الدنيا كانوا يمنعونني عن ذلك ... " .[5]

إن قضية المنع قضية ثانوية، ولا تساق – في رأيي على الأقل – إلا للتشهير من طرف خفي، أما السبب الحقيقي للإعراض عن الدنيا فهو العناية " بخدمة القرآن والإيمان، والتي هي أجلّ خدمة و أخلصها و أحقها "[6].

ومراجع الرسائل يقف على هذه الخدمة المبتغاة، و هو يعلم و يقدر مسؤوليته كعالم دين:" مكلف شرعا بإفاده الناس، و لذا أريد أن أخدمهم من هذه الناحية أيضاً، إلا أن هذه الخدمة تعود بالنفع على الحياة الاجتماعية ولدنيوية، وهذه ما لا أقدر عليها، فضلاً عن أنه يتعذر القيام بعمل سليم صحيح في زمن عاصف..."[7]

والرجل شديد التواضع في تقدير نفسه و جهده، فلا يجرؤ على التصريح أو الإيحاء بدور أكبر مما يستطيع أو يبتغي، و قد قنع بوصول ما كسبه لنفسه – من حقائق الإيمان وما جربه من أدوية معنوية – إلى الآخرين."لعل الله يقبل هذه الخدمة (يكاد يقول اليسيرة) و يجعلها كفارة لذنوب سابقة. ".[8]

قد لا يعدم المحب المتأول لكلام الشيخ نصا هنا أو هناك، يجري به تعديلاً على منهج استقر، أو فكرة شاعت، يدعو به الأتباع إلى الخروج من" عزلة فكر " أملتها ظروف، لا يحسن أن تدوم مع زوال أسبابها، ألم يوحي كلام النورسي نفسه بمثل ذلك حين ربط وضعاً يعيشه بشيخوخة لا تسهم بالنشاط و تكاد تفقده، وبوحدة لا خيار له فيها تكاد تقطعه عن العالم،" فالدخول في ألاعيب السياسة الخطرة و غير الضرورية في زمن الشيخوخة إنما هو خلاف العقل، و مجانبة للحكمة لشخص مثلي لا صلة له مع أحد، و يعيش منفرداً، ومضطر إلى التحري عن كفارات لذنوبه السابقة ، بل يعد ذلك جنونا وبلاهة ، بل حتى البلهاء يفهمون ذلك ." [9] فهل الشيخوخة و الإكراه يمنعانه من ممارسة السياسة، و لو تغيرت الظروف أو تحسنت لكان له شأن آخر ؟

وهناك كلام آخر للشيخ قد يعزز هذا الطرح لدى المحب المتأول، في أثناء رده على السائل " المفترض" يمكن أن يفهم منه المتأول إمكانية تغيير سعيد لنمط حياته و أسلوب

تفكيره إذا زالت أسباب الأسر والإكراه: "أيها السادة: بأي حق تكلفونني أن أطبق آداب مدنيتكم ؟ فأنتم قد أجبرتموني على الإقامة ظلما في قرية طوال خمس سنوات، ومنعتموني حتى عن المراسلات و الاختلاط مع الناس، وكأنكم قد أسقطتموني من الحقوق المدنية، فضلا عن أنكم جردتموني بغير سبب من كل شيء، و لم تسمحوا لي أن أقابل أهل مدينتي ... فهذه المعاملات تعني أنكم لا تعدونني من أفراد الأمة ولا من رعايا هذا الوطن،فكيف إذن تكلفونني تطبيق قوانين مدنيتكم، وأنتم قد ضيقتم علي الدنيا على سعتها، وجعلتموها لي سجنا، أفيكلف من هو في السجن بمثل هذه الأمور؟..."[10]

من الواضح أن الرجل يتكلم بمنطق الحقوق و الواجبات في الوطن الواحد،بما يشعر بفهمه الكامل لما يدور حوله،على خلاف مسلك بعض العباد و المنقطعين الذين لا دراية لهم بمثل ما سبق. لكنه في نفس المحاورة يدلي بإشارات تبدو متناقضة في تقييم موقفه "المتردد" أو الموحي بالاضطرار تارة، والاختيار تارة أخرى،"وأنتم قد أقفلتم علي باب الدنيا، وأنا بدوري قد طرقت باب الآخرة، ففتحته باب الرحمة الإلهية، فكيف يطالب من هو واقف في باب الآخرة أن يطبق عادات أهل الدنيا وآدابها المشوشة، فمتى أطلقتموني حرا وأعدتموني إلى مدينتي وموطني ، وأعطيتموني حقوقي كاملة، فلكم عندها أن تطالبوا بتطبيق آدابكم."[11]

فهل سبب الانقطاع عن مدنية "السائل " وآدابها ، ورفض طراز حياته من ملبس وهيئة بما يوحي بالمعارضة :السجن و المنع ؟ أو هو الإقبال على الآخرة الذي يمنعه عن طرق عادات أهل الدنيا ؟

أكاد أجزم بأن السبب الرئيس هو ما ذكر آخرا، أما السبب الأول فلم يذكره إلا من باب التعجيز بالمنطق الذي يدعون احترامه، بدليل جوابه على سؤال مريب وتأكيده الانقطاع الكلي عن الخوض فيما يخوض فيه السائل بإحالتهم على مسلكه السابق على الاعتقال، ففي " الوقت الذي لم أتدخل في دنياكم و أنا في مدينتي و حولي طلابي وأقربائي، و أعيش في وسط من يصغي إلي و يستشيرني،بل لم أتدخل في دنياكم حتى في خضم تلك الحوادث المثيرة، أفيمكن أن يتدخل فيها من هو في دار الغربة، و هو وحيد منفرد، وضعيف عاجز،متوجه بكل وسعه للآخرة ، منقطع عن الاختلاط والمراسلات، و لم يجد إلا بضع أصدقاء في الآخرة، و هو الغريب عن الناس...هذا

الإنسان إذا تدخل في دنياكم العقيمة و الخطرة ينبغي له أن يكون مجنونا جنونا مضاعفا."[12]

قد تكون هناك ثلاث دعائم لمذهب سعيد الجديد ليس لجانب الإكراه أو التقية أو التحيل فيها من أثر، ولتصريح بها أقوى من أي احتمال مجرد، أو مشوب بتأويل، يلجأ إليه عادة تابع مجدد، أو تلميذ حريص على تراث،يخشى عليه الهجران، أو انفضاض الأتباع عنه.

فالدعامة الأولى يمكن وصفها بالدعامة المبدئية أو الفلسفية، إذ سعيد القديم والمفكرون (المشار إليهم في السؤال) "قد ارتضوا بقسم من دساتير الفلسفة البشرية، أي يقبلون شيئا منها، ويبارزونهم بأسلحتهم (الدفاع عن الإسلام اتجاه أوروبا الوارد في السؤال) ويعدون قسما نت دساتيرها كأنها العلوم الحديثة فيسلمون بها، و لهذا لا يتمكنون من إعطاء الصورة الحقيقية للإسلام على تلك الصورة من العمل، إذ يطعمون شجرة الإسلام بأغصان الحكمة التي يظنونها عميقة الجذور، و كأنهم بهذا يقوون الإسلام. ولكن لما كان الظهور على الأعداء بهذا النمط من العمل قليل (قليلا)؟، ولأن فيه شيئا من التهوين لشأن الإسلام، فقد تركت ذلك المسلك ، و أظهرت فعلا أن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أبدا أعمق أسس الفلسفة، بل تظل سطحية تجاهها.."[13]

أما الدعامة الثانية فتتعلق بالأولى من حيث الحرص على نظافة الفكرة وعدم التشويش عليها بالشبهات تقتنص، أو بالاتهامات تلقى، يسمح بها أو يبررها موقع يتبوؤه المصلحون، لخدمة الدعوة، فيستغله خصيم لتوجيه سهام، قد لا تصيب، فإذا طاشت شاه بها وجه الحقيقة الناصع : " إن الحقائق الإيمانية والقرآنية ثمينة غالية كغلاء جواهر الألماس، فلو انشغلت بالسياسة لخطر بفكر العوام (أو لأخطروا ؟): أيريد هذا أن يجعلنا منحازين إلى جهة سياسية ؟ أليس الذي يدعو إليه دعاية سياسية لجلب الأتباع؟ (أو لجلب المنافع) بمعنى أنهم ينظرون إلى تلك الجواهر النفيسة أنها قطع زجاجية تافهة، و حينها أكون قد ظلمت تلك الحقائق النفيسة، و بخست قيمتها الثمينة، بتدخلي في السياسة."[14]

ويقول في موضع آخر: " إن خدمة الإيمان وحقائق الإيمان هي أجل من كل شئ في الكون، فلا تكون أداة لأي شيء كان، فإن خدمة القرآن الكريم قد منعتنا كليا من السياسة، حيث إن أهل الغفلة والضلالة في هذا الزمان يبيعون دينهم للحصول على

حطام الدنيا، و يستبدلون بالألماس القطع الزجاجية المتكسرة، يحاولون اتهام تلك الخدمة الإيمانية بأنها أداة لتيارات قوية خارج البلاد، و ذلك للتهوين من شأنها الرفيع ."[15]

وقد لخص الرجل في عبارة وجيزة خلاصة تجربة تنضاف إلى مبررات انسحاب، وأمارات وعي بأوضاع إذا دخلت، ابتاع فيها الأقوياء المبادئ بثمن بخس، يطلب بمثله المزيد، كلما أبدى الضعيف رغبة في تنازل، يحسبه ظفرا بموقع، حتى إذا جرد من كل ما يملك، أعيد احتلال مواقع السراب، وأرسل من فرط من غير ثوب يتحسر، على دعوة أوهم نفسه بالسعي لخدمتها، فإذا به يستدرج لدفع الأجر مرتين.

يقول بديع الزمان: " إن السياسة الحاضرة الدائرة رحاها على المنافع وحش رهيب، والتودد إلى وحش جائع لا يدر عطفه، بل يثير شهيته، ثم يعود و يطلب منك أجرة أنيابه و أظفاره."[16]

و الدعامة الثالثة في النظرة الجديدة سياسية، بمعنى أن مبرر الاعتزال ينبع من العمل السياسي نفسه،".. فالذي يخوض غمار السياسة إما أن يكون موافقا لسياسة الدولة أو معارضا لها، فإن كنت موافقا فالتدخل فيها بالنسبة إلي فضول، و لا يعنيني بشيء، حيث أنني لست موظفا في الدولة و لا نائبا في برلمانها، فلا معنى عندئذ لممارستي الأمور السياسية، و هم ليسو بحاجة إلي لأتدخل فيها، و إذا دخلت ضمن المعارضة أو السياسة المخالفة للدولة، فلا بد أن أتدخل إما عن طريق الفكر أو عن طريق القوة، فإن كان التدخل فكريا فليس هناك حاجة إلي أيضا، لأن الأمور واضحة جدا، والجميع يعرفون المسائل مثلي، فلا داعي للثرثرة ، وإن كان التدخل بالقوة، أي بأن أظهر المعارضة بإحداث المشاكل لأجل الوصول إلى هدف مشكوك فيه، فهناك احتمال الولوج في آلاف من الآثام والأوزار، حيث يبتلى الكثيرون بجريرة شخص واحد، فلا يرضى وجداني الولوج في الآثام و إلقاء الأبرياء فيها، بناء على احتمال أو احتمالين من بين عشرة احتمالات..." .[17]

بعض من يقرأ الرسائل أو يكتب عنها يسيء إلى الرجل حين يجرّد منهجه من السياسة أو يدرجه في قائمة من يلعنها، لأن هذا الفهم يسلم إلى" انطباع " أو غل في الإساءة عندما يظن قارئ أن بديع الزمان ينقض مبدأ الشمول الذي يفاخر به المفكرون والدعاة، و الذي يعد من الخصائص الكبرى لهذا الدين، أو أن الرجل استسلم لضغوط واقع عجز عن مواجهته، فانزوى في أحد أركانه يتأمل هذا الدين من خلاله، فانحصرت رؤيته عند حدود القفل الذي يستر ق منه النظر .

لكن التدقيق في السياق ينصف الرجل، و الوقوف عند ضوابط الإطلاق ينفي التهم، و" الفقه " الذي تنضح به الرسائل يربأ به عن مجاراة طرائق لا يخفى عـــوار بعضـــها أو قصور بعض دعاتها.

ومن هنا يميز الرجل نفسه عمّن يلج أبواب المشاركة بدون قيـــد، يتحمـــل أو زار العواقب فيها، أو تبعات الإساءة إلى ما يحمل، كما نأى بنفسه عمن يجاهر " بعزلـــة " مدّعاة، تساق إليه بها مغانم يشيع في الناس إقباله عليها، أو يتخذ من الإدبار المعلـــن وسيلة للتكسّب، قد يعجز عن نيل حصائلها مقبل على الدنيا ذو لهفة و لوعة.

إن الرجل لم يكن في كلامه ينفي مثل تلك الانطباعات فحسب، بل كان يؤصـــل لموقف يتخذ، تجاه مدنية خبر أسسا فيها و مبادئ، تجعلها تتناقض – حتى في صورتها التي لم تبلغ الذروة كما هي اليوم، وكما لم يعاصرها بديع الزمان – مع أسس ومبادئ الشريعة الإسلامية، و هو إذ يعمد إلى المقارنة التي تقود إلى التفضيل فإنه لا يرفض ضمنا " عولمة " مبادئ الآخر في صورتها البدائية فحسب، بل ينقض الأسس و المبادئ ذاتهـــا، ويدعو إلى التمسك بقوة بمبادئ المدنية الإسلامية.

ولا يُقال بأن الرجل لا يمكنه أن يحكم على شيء لم يدركـــه أو لم يعاصـــره، لأن الأسس و المبادئ المذكورة في "المدنية الحاضرة" هي نفسها اليوم كما كانت بالأمس، و لم يتغير فيها إلا ازدياد وتيرة النمو في الفضائل السلبية، و لئن رفض الرجل مغرياتها قبل قرن، فينبغي – من باب أولى – أن يكون أشدّ رفضاً لها في الوقت الحاضر مع بقاء نفس الأسس و المبادئ .

" فنقطة إستنادها القوة بدل الحق، و شأن القوة الاعتداء و التجاوز و التعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة ."[18]

فهل تغير شئ من هذا القانون الظالم ، بل إنه يزداد شراسة وشـــراهة كلمـــا ازداد ضعف الآخر، و بخاصة في الظرف الذي تتمحض فيه القوة للظلم، وتنفـــرد بالهيمنـــة والصدارة اللذان يمنعان التدافع، ويضيق على الآخرين هوامش المناورة، و لا تكتفي هذه القلة من البشر الاستئثار بالقوة حتى تضيف إليها الثروة لإحكام طوق النفوذ على باقي البشر. بل إن الرجل يتنبأ بهذا أو بمثله حين يقول عن " آخر الزمان" : " ...أما التيـــار الثاني : فهو التيار الطاغي المتمرد، المتولد من فلسفة الطبيعيين ، هذا التيار ينتشر ويتقوى تدريجيا بوساطة الفلسفة المادية في آخر الزمان حتى يبلغ به الأمر إلى إنكار الألوهيـــة، ويمنح أفراد هذا التيار المنكرون لله سبحانه أنفسهم نوع من الربوبيـــة كـــأنهم نمـــاردة

صغار... "[19] حتى صار بعض الكتاب ينفون-في احتجاج ذي مغـــزى - أن يكـــون "بوش" إلها ؟ !

و الأساس الثاني لهذه المدنية يتعلق بالهدف الذي تقوم عليه، فهو " منفعة خسيســـة بدل الفضيلة، و شأن المنفعة التزاحم و التخاصم، ومن هنا تنشأ الجناية." [20] و هـــل هناك جناية أعظم من السطو المباشر و غير المباشر على مقدرات الشعوب و ثرواتها، من خلال "استعمار "بغيض عايشه النورسي، ومن خلال الشركات الكبرى التي تســـتظل بها عولمة يجري التبشير بها و التمهيد لها على عجل في العالم الإسلامي كله.

" ودستورها في الحياة : الجدال و الخصام بدل التعاون، و شأن الخصـــام التنـــازع والتدافع ، ومن هذا تنشأ السفالة." [21] وقد وصلت السفالة الآن إلى حد التشهير علنا بالإسلام ومبادئه، من قبل أناس تفرض عليهم مواقعهم قدرا من التحفظ يمـــنعهم مـــن الجهر بمشاعر الكره تجاه الآخر، وبخاصة إذا كان مخالفا لهم في العـــرق أو في الـــدين، ولكن زهو القوة يستدرجهم لخرق كل الأعراف و الأذواق.

"ورابطتها بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، و تتقـــوى بـــابتلاع الآخرين، و شأن القومية السلبية ولعنصرية : التصادم المريع، و هو المشاهد، ومن هـــذا ينشأ الدمار و الهلاك." [22] وهي نفسها العنصرية التي تقوم الآن أحزاب على أساسها في الغرب، تقيم برامجها و تسوق نفسها من خلال الوعود بتهجير المسلمين من أوروبا.

"وخامستها : هي أن خدمتها الجذابة تشجيع الأهواء و النوازع، و تذليل العقبـــات أمامهما، و إشباع الشهوات ولرغبات، و شأن الأهواء و النوازع دائما :مسخ الإنسان وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية و تمسخ مسخا معنويا ."[23]

إن إرهاق الإنسان بالمتع و الشهوات، و إشغاله بالتوافه و الاهتمامات الهزيلـــة لا يشكو من وطأتها وآثارها المدمرة المسلمون وحدهم فحسب، بل حتى عقلاء الغرب يجأرون بالشكوى من تغير أنماط الحياة، و تدني الأخلاق، و تسفل الأذواق .

هل هي قراءة دقيقة وناقدة لواقع المدنية الغربية ؟تستشرف مستقبلا يكتنفه غموض، أو تنبؤ بالأسوأ تبين لاحقا أنه أشد ضراوة ؟ قد يكون هذا أو ذاك، من رجل سمح لـــه التأمل بملاحظة ما لا يلاحظه كثير من الناس، و بخاصة أولئك الذين بهـــروا بمظـــاهر خادعة، و أشكال زائفة، تخفي حقائق الأشياء

" إن معظم هؤلاء المدنيين لو قلبت باطنهم على ظاهرهم لرأيت في صورتهم ســـيرة القرد و الثعلب والثعبان ولدب و الخنـــزير ." [24]

و من ثاقب بصر النورسي و هو يتحدث عن أسس هذه المدنية الغربية أنه تنبأ لها وللعالم بالمزيد من الآثار المدمرة . " إن مجموع ما ارتكبته البشرية من مظالم و جرائم وخيانات في القرون الأولى قاءتها واستفرغتها هذه المدنية الخبيثة مرة واحدة ، و سوف تصاب بالمزيد من الغثيان في قابل أيامها " [25] ووقع ما تنبأ به الرجل فعلا، فقد استفرغت حربين عالميتين بعد ذلك كما يقول المترجم.

وفي مقابل ذلك تقوم مدنية القرآن على أسس مختلفة تماما بل متناقضة :

" فنقطة استنادها الحق بدل القوة، و من شأن الحق دائما العدالة و التوازن، ومن هذا ينشأ السلام و يزول الشقاء.

و هدفها الفضيلة بدل المنفعة، و شأن الفضيلة المحبة و التقارب، و من هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة .

و دستورها في الحياة التعاون بدل الخصام و القتال، و شأن هذا الدستور الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

و خدمتها للمجتمع بالهدى بدل الأهواء و النوازع، و شأن الهدى الارتقاء بالإنسان و رفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم.

و رابطتها بين المجموعات البشرية رابطة الدين و الانتساب للوطن، و علاقة الصنف والمهنة و أخوة الإيمان،

و شأن هذه الرابطة أخوة خالصة و طرد العنصرية و القومية السلبية." [26]

هذه هي المبادئ التي ينبغي أن تسود، و أكاد أقول : هي التي ينبغي أن **"تعولم"**، لأنها نافية للشر مجلبة للخير

و حتى مظاهر الغبن التي يستدل بها السيد بديع الزمان قبل عقود هي نفسها تقريبا التي توردها دوائر الإحصاء ولمتابعة، فالمدنية التي يرقبها " ألقت بثمانين بالمائة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة، أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء و هؤلاء، و تتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة هي في إسعاد الجميع ، أو على الأقل أن تصبح مبعث نجاة للأكثرية "[27]

و يعرض النورسي لتلميذ المدنية الغربية و تلميذ مدنية القرآن، و كيف أن الأسس السالف ذكرها تجعل الأول عبدا للقوة و اللذة، أما الآخر" فهو عبد عزيز " لأنه يخضع لعبودية حقيقية ، وهي غير تلك التي يخضع لها الأول.

" إن الذي يتلقى الدرس منك(المدنية الغربية) و يسترشد بهديك يصبح" فرعونا " طاغية، و لكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس الأشياء، و يتخذ كل شئ ينتفع منه ربا له، وتلميذك هذا متمرد أيضا، لكنه متمرد مسكين، إذ لأجل لذة تافهة يقبل قدم الشيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل و الهوان .و هو" جبار"، لكنه جبار عاجز في ذاته، لأنه لا يجد مرتكزا في قلبه يأوي إليه.

إن غاية ما يصبو إليه تلميذك و ذروة همته : تطمين رغبات النفس و إشباع هواها، حتى إنه دساس يبحث تحت ستار الحمية و التضحية و الفداء عن منافعه الذاتية، فيطمئن بدسيسته و خبثه و حرصه، و يشبع نهم غروره، إذ لا يحب حقا إلا نفسه، بل يضحي بكل شئ في سبيلها.

أما التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم فهو " عبد "، و لكنه لا يتنزل لعبادة أعظم مخلوق، فهو "عبد عزيز " لا يرضى حتى بالجنة؟ (هل كل الناس مثل رابعة العدوية، و على كل حال فالطمع في الجنة أمر مشروع و مرغوب .).تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله. و هو " لين هين "، و لكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره و إذنه، فهو صاحب همة عليا و عزيمة صادقة.

و هو " فقير "، و لكنه مستغن عن كل شيء بما ادخره له مالكه الكريم من الثواب الجزيل.

و هو " ضعيف " و لكنه يستند إلى قوة سيده المطلقة، فلا يرضى تلميذ القرآن الكريم الخالص حتى بالجنة الخالدة مقصداً و غاية له؟! فكيف به بهذه الدنيا الزائلة...".[28]

هذا هو الإنسان الذي تنتجه كلتا الفلسفتين، و هذا هو مبلغ التفاوت بين همتي كل منهما، و لعل الفرق يظهر أكثر في مدى التضحية و الفداء لدى كل منهما: " فتلميذ الفلسفة يفر من أخيه أثَرة لنفسه، ويقيم عليه الدعوى، أما تلميذ القرآن فإنه يرى جميع عباد الله الصالحين في الأرض و السماوات إخواناً له، و يشعر من أعماق روحه بأواصر تشدّه نحوهم... " [29] هذا هو الوضع المثالي المفترض في هذا التلميذ" ...بيد أن درجات الناس متفاوتة في الهداية و الضلالة، و مراتب الغفلة مختلفة متباينة، فلا يشعر كل واحد بهذه الحقيقة في كل مرتبة، إذ الغفلة تبطل الحس و الشعور و تخدرهما، و قد أبطلت في هذا الزمان الحس والشعور إلى حد لم يعد يشعر بألم ومرارة هذا العذاب الأليم أولئك السائرون في ركاب المدنية الحاضرة ...".[30]

كثيراً ما يلجأ النورسي إلى هذه المقارنات ليوقف قرّاءه على حقيقة الخير الموجود في دين غفل عنه الأتباع، وليدعوهم للتمسك بما يفرطون فيه، و الحذر مما تهواه أنفسهم من السير في ركابه، إنها دعوة للتحصن يتبعها بنداء صريح لا لبس فيه: " فيا أبناء هذا الوطن لا تحاولوا تقليد الإفرنج، و هل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا الشنيع (اليوم أميركا) وعداوتهم اللدودة تتبعونهم في سفاهتهم، وتسيرون في ركاب أفكارهم الباطلة، وتلتحقون بصفوفهم و تنضوون تحت لوائهم بلا شعور؟...".[31]

و يكرر النداء فيقول: " فيا شبان الترك : فهل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا معكم و عداوتهم لكم تتبعونهم في سفاهاتهم و أفكارهم، بل تلتحقون بصفهم بلا شعور؟ ألا إنكم تكذبون في دعوى الحمية، إذ هذا الاتباع استخفاف بالملية و استهزاء بالملة. هدانا الله وإياكم إلى الصراط المستقيم ." [32]

و إذا أردنا أن نستحضر هذا الكلام الآن، أو أن نسقط هذه الدعوة للمفاصلة على عصرنا الحاضر، فلا مفرّ من الإقرار بأنها تناقض دعوات الانصهار أو التبعيّة تناقضاً مطلقاً، وتقف من قوانين العولمة و آلياتها الجاري تعميمها موقفاً معارضاً لا مجال فيه لأدنى تأويل أو ترقيع، و الرجل لا يقنع بذلك – و كأنه بيننا – حتى يشن حملة على الخصال و الأخلاق و أنماط العيش التي تمكن لهذه العولمة في ديارنا، و قد لا تختلف كثيراً الأجواء التي تصطنع قديماً و حديثاً، و الفراغ الذي يُستحدث في ميدان القيم، لملئه بمظاهر التقليد المفضية للخضوع و التبعية.

إن الأوضاع التي صدرت فيها هذه الدعوة قد لا تختلف مع أوضاع اليوم إلا في القدر و الحجم، و الآليات الناتجة عن الثورة التكنولوجية، ذلك أن الإنسان هو المستهدف في النهاية عبر كل العصور: في دينه وخلقه و ذوقه وتقاليده .

لقد أشار فيما مضى إلى رابطة الدين كأساس من أسس مدنية القرآن، و ذكر أن من شأن هذه الرابطة الأخوة المنافية للعنصرية و القومية السلبية. و ذكر في مواضع عديدة من الرسائل أن لها آثارا مدمرة،" منها أن الأمويين خلطوا شيئا من القومية في سياساتهم فأسخطوا العالم الإسلامي، فضلا عما ابتلوا ببلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية. وكذلك شعوب أوروبا لما دعوا إلى العنصرية و أوغلوا فيها في هذا العصر، نجم العداء التاريخي الملئ بالحوادث المريعة بين الفرنسيين و الألمان..." [33]

و ذكر أيضا أن بعض الأوروبيين يشيعون هذه الفكرة أو القومية السلبية في أوساط المسلمين ليسهل لهم ابتلاعهم " فأطماع أوروبا لا تفتر و لا تشبع، و هي كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع."[34]

و قد أملت هذه الدعوة حتى أضحت الدعوة للقومية السلبية مطمحا ترنو إليه الجماهير لما بلغت حالا من التفكك طال القطر الواحد، بعد أن أتى على رابطة العرق التي جعلت بديلا لرابطة الدين فغدت دعوة المعتصم صرخة في واد، ليس فقط لذهاب النخوة و الشهامة ، بل لأن الصرخة نفسها يستهجنها أخلاف متمردون ،و تتأكد بهذا مقولة النورسي أن أوروبا (أمريكا اليوم) لا تشبع و لا تنتهي أطماعها .

إن كلام بديع الزمان عن قومية سلبية يوحي بتزكيته لأخرى " ... إيجابية نابعة من حاجة داخلية... تكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية ... و هي مطلوبة حين تكون خادما للإسلام ... لا بديلا عنه." [35] وشعارها قوله تعالى :[**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**...] الحجرات:13 " أي خلقناكم طوائف و قبائل و أمما وشعوبا كي يعرف بعضكم بعضا، و تتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية ، لتتعارفوا فيما بينكم، و لم نجعلكم قبائل و طوائف لتتنا كروا فتتخاصموا ."[36]

هذا هو المبدأ الذي أكده الشيخ مرارا، و حذر أمته من الانحراف عنه، لأن في ذلك إيذانا بالأفول والزوال، و هو ما تحقق بالفعل، إذ لم تجد دعوته و تحذيراته آذانا صاغية، فبعد أن أعمل الغرب فينا معاول الهدم و التفكيك راح يستمسك بشعارات القومية والدين لإنجاز مشروعه الوحدوي ؟!

تعتبر "صناعة " الجوع من أبرز تداعيات أو "آليات" العولمة، لأنه يدفع حكومات العالم النامية إلى الاستدانة من مؤسسات الإقراض الدولية، فتزداد الشعوب رهقا على رهق، و يصبح الهم الوحيد هو تسديد فوائد الديون، حتى أضحت كثير من الدول رهائن في أيدي هذه المؤسسات، و كان من نتائج ذلك أن انتهكت السيادة، و طوّح بالقرار المستقل.

لا يمكن المجازفة بالقول : إن النورسي كان يطرح في زمانه حلولا لمشاكل يومنا، فهذه –ربما – شنشنة يرددها تابع محب، لا يكاد يرى غير الأفضال و الفضائل ، و لكن لا يمكننا أن ننكر وجود كلام للرجل في الرسائل، يتنبأ فيه باشتداد بعض الأزمات، يقترح لها عناوين للعلاج، من واقع تشبعه بهدايات القرآن،وتأملاته في الواقع و الآفاق،

فحين يتوقع حدوث الجوع – مثلا - في آخر الزمان لا يهم الباحث أن يدرج ذلك ضمن الكرامات التي يمكن أن يُعنى الكثيرون بنسبتها للشيخ، و قد يكون هذا صنيع أتباع يتصيدون ما يغيظون به الخصوم،ولكن التحرج من هؤلاء لا يمنع من تقدير هذا الأمر ، و بخاصة حين يذكر أسباب الظاهرة ، و العلاج المقترح ، و هو إذ يفعل ذلك لا يفعله في نقاش أو جدل اقتصادي أو اجتماعي، و إنما هي أوزاع فكر مهمة الباحث أن يدرجها في سياق فكري متكامل.

يقول بديع الزمان : " يفهم من الروايات أن الجوع سيؤدي دورا مهما في فتنة آخر الزمان، و أن أهل الضلالة يحاولون بهذا التجويع إغراق أهل الإيمان – الضعفاء الجائعين - في متطلبات هموم العيش حتى ينسوهم مشاعرهم الدينية، أو يجعلوها في المرتبة الثانية أو الثالثة."[37] وهذا الذي حصل و لا يزال يحصل.و ينبه القراء إلى أن المدنية الغربية أفرزت أنماطا معيشية أدت بالناس إلى إعادة ترتيب أولوياتهم، وأغرقهم بالتقليد الذي دفعهم إلى الإسراف و التبذير ، و في هذا إشارة واضحة لأسباب بعض العلل،

تكمن في التحرر من التقليد الأعمى، فقد " كان البشر في عهد البداوة تعوزهم ثلاثة أو أربعة أشياء، وكان اثنان من كل عشرة أشخاص يعجزان عن تدارك تلك الأشياء الثلاثة أو الأربعة، بينما في الوقت الحاضر – تحت سطوة المدنية الغربية المستبدة، المتميزة بإثارة سوء الاستعمال، و الدفع إلى الإسراف، و تهييج الشهوات، و إدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكم المطالب والحاجات الضرورية - فقد أصبح الإنسان العصري من حيث حب التقليد و الإدمان مفتقرا إلى عشرين حاجة بدلا من أربع منها ضرورية، و قد لا يستطيع إلا شخصان من كل عشرين شخصا أن يلبوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال بشكل مباح، و يبقى الآخرون الثمانية عشر محتاجين وفقراء، فهذه المدنية الحاضرة إذن تجعل الإنسان فقيرا جدا و معوزا دائما..."[38]

إن العنوان العام لهذا البلاء هو العصيان، و لا يرفع إلا بالتوبة و الرجوع إلى الله، من خلال الإقلاع عن تناول واكتساب المال الحرام، و الإقلال من الطيبات على قدر الضرورة، والسعي لدفع الزكاة، كل ذلك في قوله: " إن أهم سبب لهذه المصيبة هو العصيان النابع من كفران النعمة، و عدم الشكر، وعدم تقدير النعمة الإلهية حق قدرها... إن مهمة أهل الإيمان و أهل الحقيقة - ولا سيما طلاب رسائل النور- هي السعي لجعل بلاء الجوع هذا وسيلة الالتجاء إلى الله، و الندم على الذنوب، والتسليم لأمر الله...والسعي لدفع الزكاة إلى أولئك الفقراء الجائعين، الذين لا يرأف بحالهم قسم

من الأغنياء و بعض أهل المرتبات..."[39] ثم يوجه طلاب رسائل النور إلى ضرورة الانسحاب"... من الذنوب و الفحش، بعدما أطغوا نفوسهم بالأطعمة اللذيذة، فأفقدوها وعيها، و ساقوها إلى الطغيان و الهوى الدنيء ... في هذا الوقت الذي أصبح أغلب الناس جياعا، واختلط المال الحرام بالحلال اختلاطا شديدا حتى استحال تمييز أحدهما عن الآخر..." وحثهم على القناعة "... بمقدار الضرورة من الإعاشة العامة – التي يشترك فيها الجميع ضمنا-ليكون حلالا، فيقابل القدر الإلهي بالرضا بدلا من الشكوى." [40]

أما الإقلاع عن الذنوب و التوبة النصوح فهذه نصائح العقلاء في كل زمان و مكان، و أما الاقتصاد في المعيشة و دفع الزكاة فهي وصايا أهل الاقتصاد – اليوم و غدا – كحلول ناجعة لمشاكل الجوع و الفقر المزمنة .بل إن سعادة البشرية " منوطة بالاقتصاد و عدم الإسراف، و على إثارة الهمم للسعي و العمل والكد..و أنه بهذين الشرطين يتم التآلف و الوئام بين طبقتي البشرية..." [41]

و يوجه خطابا إلى عقل المسرف و قلبه، فيقول له : " يا أخي المسرف : لقمتا ن مغذيتان، إحداهما بقرش والأخرى بعشرة، هما سيان قبل دخولهما الفم، و سيان كذلك بعد مرورهما من الحلقوم، فلا فرق إذن إلا ذوق يدوم لبضع ثوان للغافل الأحمق، إذ تخدعه حاسة الذوق دوما بهذا الفرق ...." [42]

و يقول له في الثاني : "لم يكن أكثر المسلمين في السابق جائعين، فكان الترفه جائز الاختيار إلى حد ما، أما الآن فمعظمهم يبيتون جياعا ، فلم يعد لنا إذن شرعي في التلذذ..."(43) لقد بدأ بنفسه فكان شعاره العيش " بالاقتصاد و البركة ..." [44] لأسباب كثيرة لعل من أهمها رفضه أن يقبل من غير رازقه منة من أحد [45] و لأن "... الذي يحد غالبا أن المعطي يعطي باسم نفسه، فيتمنن ضمنا ، أو أن الآخذ يسند الشكر ولثناء الخاص بالمنعم الحقيقي إلى الأسباب الظاهرية فيخطئ." [46] بتصرف يسير.

إن كثيرا من أسباب المشاكل – على مستوى الدول بخاصة – هي الأيدي التي ترسل بلا حرج، أو تمد على استحياء للتلقي، فيساء إلى المبادئ، و ترتهن المواقف، قد يكون بديع الزمان مبالغا في التزامه، وقد تكون له و لدعوته ظروف خاصة، غير أن المثال الذي ضربه ، لو التزم، و الكلمات التي سطرت،

لو تم استيعابها، على مستوى الأفراد و الجماعات و الدول، لتجنبت كثير من المشاكل والكوارث.لكن الأهم من ذلك أن ما طرح كان مفردات لمنهج مفترض، لمواجهة سلبيات مدنية عاصرها النورسي، و أعتقد أنه يصلح – بقوة الإيمان و العمل – للتخفيف من آثار عولمة هذه السلبيات التي لم يعاصرها، و ما أحسبه يفعل غير ما فعل، لو قدرت له الحياة مرة أخرى.

الهوامش

(1) شمعون بيريز – الشرق الأوسط الجديد: ص173

(2) شمعون بيريز ص:179

(3) بديع الزمان النورسي– كليات رسائل النور– المكتوبات – تحقيق إحسان قاسم الصالحي– دار سوزلر للنشر– القاهرة – مصر– الطبعة الثانية – 1413ه–1992م :77/2

(4)المكتوبات 76/2

(5)المكتوبات 81/2

(6)المكتوبات 78/2

(7)المرجع نفسه

(8)المكتوبات 78/2

(9)المرجع نفسه

(10)المكتوبات 87/2

(11) المرجع نفسه

(12) المكتوبات 87/2

(13) المكتوبات 570/2

(14) المكتوبات 78/2

(15) الملاحق في فقه دعوة النور 159/7

(16) الكلمات 850/1

(17) المكتوبات 76/2–77

(18) الكلمات 855/1

(19) المكتوبات 71/2

(20) الكلمات 855/1

(21) المرجع نفسه

(22) المرجع نفسه
(23) المرجع نفسه
(24) المرجع نفسه
(25)الكلمات 857/1
(26) الكلمات 855/1-856 و انظر أيضا حول الفرق بين المدنيتين : المثنوي العربي النوري 181/6
(27) الكلمات 856/1
(28) اللمعات 181/3
(29) اللمعات 182/3
(30) اللمعات 183/3-184
(31) اللمعات 184/3
(32) المثنوي العربي النوري 272/6
(33) المكتوبات 414/2 و انظر كذلك :70/2 حيث ذكر الأسباب التي أدت إلى ارتكاب المظالم من قبل الأمويين في حق الحسين و شيعته، و التي من أهمها اعتمادهم على قومية العرب و نظرتهم المتعالية إلى سائر الأقوام كأنهم عبيد.
(34)المكتوبات 415/2
(35) المرجع نفسه
(36) المكتوبات 413/2
(37)الملاحق في فقه دعوة النور 161/7
(38) الملاحق في فقه دعوة النور 378/7
(39) الملاحق ...161/7-162
(40) الملاحق...162/7
(41) الملاحق... 378/7
(42) الكلمات 867/1
(43) الكلمات 869/1
(44) المكتوبات 82/2
(45) المرجع نفسه
(46) المكتوبات 16/2